وفاق المدارس العربيه.....غابات وإنجازات

الشيخ نور الرحمن قزاروى

هناسؤال لطالما يزعجني،ولم أكد ـ وعساي لن أكاد ـ أستطيع أن أجيب عليه :من نحن؟ أأحرار رأم عبيد،مستقلون أم تابعون ، رءوس أم أذناب.أتحرّج أن أقول :نحن أحرار لا عبيد ، مستقلون لا تابعون ، رءوس لاأذناب، كيف وما زالت دولتنا باكستان تشهد ـ منذ يوم استقلالها ـ أنه ماارتقى فيها السلطة إلا أناس لم يعدّوا له عدّة ، ولم يأخذ وا له أهبة ، وهم ـ وإن كانوا من بني جلدتنا ـ عبيد أميركا والغرب، قد ارتهنوا وباعوا ضمائرهم وانتمائهم وتاريخهم بعرض من الدنيا ،أعلنوا على الإسلام والمنتمين إليه حربا ضروسا لا هوادة فيها ، وأمعنوا في إيذاء رجال الدين تحت حماية جبروت أميركا والغرب. هؤلاء الحكام الذين يلبسون لبوس الوطنية أو يزهون برداء القومية ينفذون ـ حرفيا ـ ماأوصى به مولاهم أميركا: من ضرب كل حركة إصلاحية تستند إلى صميم السنة النبوية أو طريقة أهل السنة والجماعة ، و إيقاف سيرها ،أو ـ على الأقل ـ تعويق تقدّمها و نفوذها وهيمنتها على الجماهير ، وخصوصاً الشباب المثقف في الجامعات والمعاهد.....يالهم من أشرار وأشقياء !! ياشتان بينهم وبين الدين!! آهٍ منهم حاقدين على الإسلام وأهله!! .....قد بلغت شقاوتهم غاية ماوراء ها غاية ، فلا حيلة فيهم إلا أن يشفي الله صدورهم ، ويزيح الغشاوة عن أعينهم ، فيتبينوا سماحة الإسلام وفضله ، و كرم أخلاق المسلمين، وإلاّ فالأمر كما قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها إلّا عداوةمن عاداك من حسد

وأدهى من كل ذلك وأمرّ،مما زادالرَّهَج هياجاوالحُرقةاشتعالا ـ تعقُّبهم للمدارس الدينية التي هي مثاريس وحصون الإسلام ،والتي حاجة المسلم إليها كحاجة السليم إلى راقٍ والمسموم إلى ترياق.ومبدأ هذا الشروأ بو عذره ـ فيما نعهد ـ هو الرئيس الأسبق المارشال أيوب خان ، حيث كان ماعمله أول شيءٍ ـ حين استولى على السلطة ـ أن هَمّ بإخضاع هذي المدارس للحكومة،وشدّها في المكبس الحكومي؛ قضاءً على حريتها، وتقليلاً لشأنها ،وحطّامن مكانها عن طريق ماسمّاه: "جَعْلَ المدارس الدينية تحت حِيازة الحكومة"،نفسَ الشعار الذي لا يتخجل الرئيس الجنرال برفيز مشرف أن يردّده اليوم أي : " تحويل المدارس الدينية إلى التيار الحكومي".فماأشبه اللّيلةَ بالبارحة !! وكلما طال الزمن وامتدالأمد ازدادت مكيدات ومؤامرات ضدّ المدارس الدينية، نسجت تحت إشراف المارشال أيوب خان في غاية من اللباقة والمهارة على يدأعداء الدين،حتى كادت أن تغمر معاقل الذود عن الدين والفضيلة والعلم.وإزاء هذا المنظر الرهيب يكاد اليأس يستولي على نفس كل مسلم مُواسٍ قاطعاً الأمل

من أن يجد بصيصاً من نور يخترق هذاالظلام الدامس خطوة فخطوة، لولا طائفة من فحول العلماء الذين توسموا وتفطّنوا لهذا الخطر الداهم ،فعزموا على الصمود ضدّ الضّغط ، ووقفوا في وجه هذا الطوفان، ولم يلبثوا أن لمسوا حاجة إلى تشكيل هيئة مشتركةللمدارس الدينية ؛ كي يتمكنوا من رفع عقيرة دفاعيّة من صعيد موحّد ضدّ المؤامرات الحكوميّة ، وبالتالي فأسّسوا هيئة تعليمية،أسمّوها:"وفاق المدارس العربية بباكستان"، وذلك في عام ١٩٥٨ المسيحي.فأبى الله إلاأن يردكيدَعدوّالإسلام في نحره.

وتشمل الأهداف التي من جَرّائها تمّ إنشاء هيئة الوفاق :جمعَ المدارس المنتشرة على مستوى الدولة تحت منهج دراسي موحّد ، وتنسيقَها بحسن نظام وترتيب ، وتنظيمَ الاختبارات وتليتَها منحَ الشهادات للمرشّحين الفائزين ، والقيامَ بتعديلات مفيدة وإدخالَ تحسينات مُجدِية في المناهج الدراسية بين حين لآخر حسبَ متطلّبات العصر الحديث ومستجدّاته ،وإيقافَ حملات تضليل وتشويه شعسة ضدّ المدارس والردَّ عليها بغلظة، وإفضاحَ المؤامرات والمكيدات المحيكة ضدّها وإسقاطَها بكل إمكانياتها وعلى نطاق واسع .

وكان عملها -بادِئ ذي بدءٍ-بُطء وعلى مهل؛حيث إن عمل الاختبار لم يعد ينتظم إلا في عام ١٩٦٠ المسيحي، كما أن البداية كانت ضيقة النطاق بكل ما تعنيه الكلمة؛ بما أن الاختبار الذي نظمه الوفاق تحت إشرافه بدءَ بدءٍ لم يشمل إلا المرحلة العالِميّة.وتمّ انعقاد الاختبار الذي شارك فيه زهاءُ مئة طالب في سبعة مراكز.

وفي ١٩٨٣م وفّق لمسؤولي الوفاق أن يوسّعوا نطاق الاختبارات- بعد أن لم يزل متسما بالضيق إلى برهة غير قصيرة أكثر من عشرين عاماً- إلى المراحل الدراسية الأخرى، ولكن لادفعةً واحدةً بل على مهل وبُطءٍ. حيث ربطوا إلى سلسلة الاختباراتِ: الثانويةَ الخاصةَ في ١٩٨٣م،والثانويةَ العامةَ في ١٩٨٤م ،والمرحلةَ العاليةَ في ١٩٨٥م ،والمرحلةَ المتوسطةَ في ١٩٨٩م ، وفي ١٩٨٩م اتجهت عنايتهم إلى مدارس البنات اتجاها صحيحاً ، اعتُبر خَطوةً تُجاه التطوّرو في ميقاتها،حيث حازوها إلى دائرة الوفاق بإجراء اختباراتها تحت إشرافه . ومنذهذه السنة أضحَت هيئة الوفاق تُجري كلّ عام تسعة اختبارات، بما فيها أربعة للبنات ،علاوة على اختبار تحفيظ القرآن الكريم .

وهناك ملاحظة طريفةتَجْدُرُ بالثناء فعلاً،وهي: أن هذه الاختبارات برُمّتها يتم انعقادهلدُبُداءةً ونهايةًفي جميع مقاطعات البلد بالإضافة إلى كشمير المستقلة في ميعاد موحّد، لا تتقدم ولا تتأخر.

ومن البنات الأولى التي منها أسّس بناءُ الوفاق وعليها قام صرحه العالي المنيف :سعادة الشيخ شمس الحق الأفغانيؒ، وفضيلة الشيخ خير محمدؒ، وفخامة الشيخ محمد يوسف البَنُوريؒ،وسيادة الشيخ المفتي محمودؒ، وقداسة الشيخ إدريس الميرتيؒ... وقدتناوب كلهم رئاسة الوفاق واحداً إثرواحدٍ.وهؤلاء الأعلام الجهابذة قدقاموا بجهود مضنية لتطوير الوفاق ليلَ نهارَ ،مضحّين بكل مرتخص وغالٍ في سبيل المحافظةعلى المدارس الدينية وعلى الفضيلة وعلى العزة،مستيقنين أن القيام بالواجب هو أسنى المطالب ،لاسيّما الشيخ المفتي محمودؒ؛ فإنّه مازال مرتبطا بالوفاق منذ تأسيسه -إلى يوم أسعده الله بجواره انتخب

ـأول ما انتخب ـ أميناً عاماً للوفاق، ثم رئيساً له. وهووالشيخ إدريس الميرتي الذي مافتئ يراسله في عمله، قد بذلا ـ في مبدإالأمر ـ عونا كبيراو عناية تامّة في إنهاض الوفاق و تنسيقه وتوطيدهيكله الأساسي .وليس من شك أن الشيخ المفتي محمود قد أسدى إلى الوفاق خدمات جليلة مشكورةلا تكاد تنسىَ، ولكن بعد برهة من الزمن ومن سوء الحظ شاءت الأقدار أن دخل معترك السياسة الوطنية التي حالت دون توجيه عنايته إلى الوفاق ؛ فلم يعد يتسع له وقت يسهر فيه على سيره ونظمه وتطويره ،بيدأن الأمر ظلّ يسيرتحت إشراف كبار العلماء ـبين البُطء والإسراع ،وشبه منتظم إذا تحرّجنا أن نقول :في غير انتظام.

وفي ٣٠ نوفمبر ـ تشرين الثاني ـمن عام ١٩٨٠م ـ بَعْدَأن انقلب الشيخ المفتي محمود إلى كرامة الله وعفوه ـ انتخب سيادة الشيخ سليم الله خان أميناً عاماً للوفاق، وبعد ثمانية أعوام تقريباً ـفي سنة ١٩٨٨م ـتم أن عُيّن رئيسا له.

وهو ما يزال يتّسم برئاسة الوفاق .أطال الله بقاءه في صحة وعافية ،وأكثر مفاخره ومآثره. والشيخ ـ منذما ارتبط بالوفاق ـ قد عني به عناية خاصّة واتجه اهتمامه أكثر ما اتجه إلى تنمية الوفاق وتوسيع دائرته وتنظيمه، باذلاً في هذا السبيل كل نفيس بدون كسل ولاسآمة . واتخذ جميع الوسائل الكفيلة بتحقيق الأغراض التي من أجلها أنشئ الوفاق. وتحقيقا لهذه الأهداف قد كرّس جهوداً جبّارة متواصلة على توالي الآنات وتعاقب الساعات ليل نهار .

فلم نعدُ الحق ولا نرتكبِ الشطط إذا قلنا: إن الفضل في تطويرالوفاق وتنظيمه من جديد وتوسيع نطاقه يعود على الشيخ سليم الله خان . والحق يقال : إنه هو الذي نفخ الحياة في هيكله ،وأنقذه من السقوط والفشل بعد أن كان على وشك الانهيار، وانتهى إلى شفاجرف هار. ولا غرابة في ذلك ؛فإنه رجل بمنأًى عن معارك السياسة و بنجوة من شَعْوَذَاتها،رجلٌ تفرّغ للعلم أيما تفرغ، وذو ولع به و خبرة واسعة فيه؛ فلا بدع أن يتمكن من القيام بهذه المآثرة العظيمة المجيدة التي قلّما يوفّق لها الإنسان .

وليس بخافٍ أنّ الشيخ قد لقي في هذا السبيل عَنَتاً كثيرا ومَشقّة عُظمىَ ، خصوصاً عقب هجمات الحاديَ عشرَ من سبتمبر، تلك الهجمات التي في أعقابها أعلن الرئيس جورج بوش حرباً صليبية على الإسلام وأتباعه، فأصبح فيلاهاتجايدوس المسلمين ،ويُبيدجنسهم....وبمجرّد مكالمة ها تفية أميركية واحدة سقط جنرالنا مشرف صريعا ،وذهبت ريحه؛ فتحوّل ـ أيما تحوّل ـ عن المواقف القومية القديمة تجاه حكومة طالبان وقضية كشمير المحتلّة و ما إلى ذلك ،وتعقّبَ المدارس الدينية وجميع الحركات الإسلامية؛ خضوعاً لضغط أميركا، ونزولاً عند رغبتها ،فعادت المدارس الدينية في محن ومهدّدة بأخطار ليست لها بها سابق عهد .ولم يلق رجال الدين من العنت والشدة في أحطّ أدوار الفسق والفجورو في أحلك عهود المعصية والعدوان ما لاقوه في هذه الفترة . فكانت هناك هموم تتوالى ولا تنتهي ، ومصاعب تتسلسل ولا تنقطع ،ولكن الشيخ صمد في وجه الحكومة الطاغية ولم يخضُع لضغطها .وتصاعدت حِدة التوترين المدارس الدينية والحكومة ، وظلّ الأمر على هذه الحال حتى انتهى إلى خضوع الحكومة للشيخ ورضيت ـعلى مضض ـ بحل الأزمة بأسلوب سلمي عن طريق المفاوضات.

وهناك مأثرة أخرى قام بها فضيلة الشيخ، ألا وهي: تشكيل: "اتحاد المنظمات للمدارس

الدينية "، التي تضمّ خمس هيآت تعليمية تنتمي إلى شتات مدارس فكريّة ، يهدف من وراء ذلك إلى مواجهة الحكومة -بصدد الذود عن المدارس الدينية- بشكل جَماعيّ ومن صعيد موحّد.

وصفوة القول : أنّ الشيخ لعب دوراكبيرا فعّالا في تطوير الوفاق و تسييره قدماً تجاه الأمام . وأنه لم يتطوّر الوفاق ولا ينتظم في عهود خالية ما تطوّر في عهده وانتظم.فلله درّه!!!

والساعةَ بينَ أيدينا تقرير سنويّ يتصل بالاختبارات السنوية لعام ١٤٢٤هـ،أعدّه الوفاق ،وهوأدلّ دليل على مدى جهودالشيخ في هذا السبيل ... ووَفق التقرير:"في العام الدراسي١٤٢٣هـ قدشارك ٨٣٥٠٧طلاّب في الاختبارالذي تم انعقاده تحت إشراف الوفاق،على حين أن العددفي العام الدراسي١٤٢٤هـ بلغ١٠٢٨٦٥طالباً وطالبة بزيادة ١٩٠٠٠ طالب وطالبة عن العام الماضي،كماأظهرالتقريرأن الاختبارالذي نظمه تمّ انعقاده في ٤٧ مركزلمابين صغير وكبير- موضحا أنه قد بلغ عدد مراكزالاختبارات في بنجاب ٢٢٤مركزا، والسند ١٠٣ مركزاً، وفي سرحد٩١مركزا، وبلوشستان ١٣٣مركزاً، وكشميرالمستقلة٢٨ مركزاً."....وذكربعض التقارير:"أنه انتهى عدد المدارس والجامعات التي تم إلحاقها بالوفاق إلى ٧٠٤٤ مدرسة وجامعة،ضِمْنَهامن بنجاب٢٦٥٥مدرسة، والسند٢٤٥٧مدرسة ،وسرحد ١٤٠٥مدارس، وبلوشستان٣٩٤مدرسة ،وكشميرالمستقلة ١٣٣ مدرسة."

والأمين العام للوفاق -حالاً-هوفضيلة الشيخ محمدحنيف الجالندهري،حفيدأستاذالعلماء الشيخ خيرمحمدالجالندهريؒ،ومدير جامعة خيرالمدارس بملتان، والسكرتيرالعام لاتحادالمنظمات للمدارس الدينيّة.و قد علمنا -بكل اغتباط -أنه تتوفّرفيه الصفات التى تؤهله لهذه المناصب الجليلة: من الحزم،والعزم،و الإخلاص،وحسن القيادة،وقوّة البيان،و الصلاح،والديانة،والفتوّة الفائقة،و الإنسانية السامية،ومكارم الأخلاق، والكفاءةالإداريّة،وسرعة البتّ،واليقظة البالغة.وقدسعىٰ فى التقريب والتصافي بين شتّى طوائف تحمل اسم الإسلام، من الديوبندية،و البريلوية،والشيعيّة،وغيرها سعياً بالغاً مثمرا.ومزج هذه العناصرالمختلفة مزجاً غريباً،في وقت لم تعدالحكومةالطاغيةوالقوى المعادية تفترلحظة واحدة عن أن توجّه إلى المدارس الدينيةاتهام الطائفية بهدف تشويه سمعتها ،وتقليل شأنها ،وتعويق نفوذها علىٰ الجماهير.....ولكن هيهات هيهات لما يمكرون!!!؛فإزاء هذاالحِلف الخُماسيّ المتكوّن من هيآت تعليمية لمدارس فكرية متشتتة فشلت محاولات الحاقدين على الإسلام لإثارة معارك وتوتّرات طائفيّة،وأخيراً التجأت الحكومة إلى سَحب قرارٍ تشريعيٍّ بعد أن تمّت الموافقة عليه.

وأيضاً للوفاق لجنة تنفيذيّة،كيانها من سبعة وعشرين عالماً من أفذاذعلماء باكستان.ومن هؤلاء الصفوة المختارة: سموّ الشيخ حسن جان،ومعالي الشيخ المفتي محمد رفيع العثماني،وسيادة الشيخ الدكتور عبدالرزاق إسكندر،وفضيلةالشيخ أنوارالحق،ونجابةالشيخ المرحوم نذيرأحمد،ونباهة الشيخ فضل الرحيم.

وهذه كليمة سُقتُها على عجل نزولاًعندرغبة بعض المشايخ،و للكلام متسع إذا لزم.وأختمها متوجهاًبالرجاء إلى الله -بملء لساني- أن يكتب للوفاق أن يكون حيّاً سعيداًوخضرا عضراً ما طرداللّيل والنهارواطّرد النّجم وسار،وأن يشقّ طريقَه إلى الأمام آمناً من عواصف الثّبوروقواصف الدّهور. ☆.....☆